

مقاومة الحاج أحمد باي

حسوني محمد عبد الغني

مقاومة أحمد باي

يُعد الحاج أحمد باي أحد أبرز رموز المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر، حيث ارتبط اسمه بمدينة قسنطينة التي أصبحت قلعةً حصينةً للنضال الوطني في وجه التوسيع الاستعماري. ولد أحمد باي في نهاية القرن الثامن عشر في عائلة أرستقراطية ذات جذور تركية، وبرز منذ شبابه في الحياة السياسية والعسكرية للبايلك الشرقي، مما أهلته لتولي منصب باي قسنطينة سنة 1826، خلفاً لحسين باي. عُرف أحمد باي بصلابته وولائه العميق للدولة العثمانية، ورفضه القاطع للاحتلال الفرنسي للجزائر الذي بدأ سنة 1830 بسقوط مدينة الجزائر. اعتبر أن مقاومة هذا الاحتلال واجب ديني ووطني، فسارع إلى تحصين مدينته وتشكيل جيش محلي مدرب استعداداً لأي هجوم فرنسي محتمل.

كان من أوائل القادة الذين رفضوا الاعتراف بالسلطة الفرنسية على الإيالة الجزائرية، ورفض بشكل قاطع كل الدعوات التي وُجّهت له للاستسلام أو التفاوض. استغل أحمد باي علاقاته القبلية ومكانته الروحية والعسكرية لبناء تحالفات واسعة في الشرق الجزائري، ونجح في توحيد قبائل الأوراس وحشد الدعم من علماء الدين والأعيان، فشكّل بذلك جبهة مقاومة قوية تميّزت بالتنظيم والانضباط. اتبع في مقاومته أسلوب حرب العصابات والمناوشات السريعة، إضافة إلى الدفاع المحكم عن مدينة قسنطينة التي اعتبرها حصنه الأخير. وقد تمكّن بفضل قدراته التنظيمية العالية من صد الهجوم الفرنسي الأول على قسنطينة سنة 1836، حيث مُني الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال كلوزيل بهزيمة نكراء كانت صدمة قوية للمستعمر الفرنسي، وأعادت الأمل للشعب الجزائري في إمكانية التصدي للمحتل. غير أن فرنسا لم تقف مكتوفة الأيدي، فعادت بهجوم أكثر ضراوة سنة 1837 بقيادة الجنرال دامرمان، مزودة بتعزيزات ضخمة وتجهيزات

عسكرية متطرفة، وتمكنت بعد معركة دامية من احتلال قسنطينة. لم يستسلم أحمد باي رغم سقوط المدينة، بل انسحب إلى جبال الأوراس رفقة من تبقى من قواته، وواصل المقاومة في ظروف صعبة، حيث واجه نقص التموين وتضييق الخناق من طرف القوات الفرنسية التي استخدمت سياسة الأرض المحروقة والعقاب الجماعي. لم يكن أحمد باي وحده في ميدان المعركة، فقد لقي دعماً معنوياً من باقي المقاومات الشعبية التي اندلعت في الغرب والوسط الجزائري، وأصبح رمزاً للوطنية والثبات، رغم أن مقاومته انتهت فعلياً سنة 1848 بعد أن ضاقت عليه السبل، واضطرب إلى التواري عن الأنظار إلى أن توفي في الخفاء سنة 1850.

تميزت مقاومة الحاج أحمد باي بكونها ذات طابع منظم ومؤسساتي، إذ حاول الحفاظ على ما تبقى من رمزية الدولة الجزائرية في وجه الاستعمار، حيث ظل يعتبر نفسه الممثل الشرعي للسلطة العثمانية في الإيالة الشرقية، وهو ما منحه شرعية دينية وسياسية في أوساط السكان المحليين. كما برزت قدراته القيادية من خلال إدارته المحكمة للموارد المحلية، وتكوينه لنواة جيش محلي، وتنظيم شؤون القضاء والإدارة المدنية في المناطق التي كانت تحت سيطرته. تُعد مقاومته من بين الأطول زمنياً مقارنة بباقي المقاومات في الجزائر خلال الفترة نفسها، حيث استمرت قرابة عشرين سنة، ما يعكس الإصرار الشديد والإيمان العميق بالقضية الوطنية. وقد واجه خلالها ضغوطاً كبيرة، ليس فقط من القوة العسكرية الفرنسية، بل أيضاً من محاولات بث الفتنة والانقسامات الداخلية، التي غالباً ما كانت تستغل من طرف العدو لضعف الصف الوطني. ومع ذلك، لم تفقد مقاومته بريقها، بل

أصبحت جزءاً من الذاكرة الجماعية الجزائرية، ونموذجاً يحتذى في الثبات والمقاومة. ورغم أن الاحتلال الفرنسي نجح في السيطرة على المناطق التي كان يحكمها، إلا أن روح المقاومة التي زرعها أحمد باي لم تنتف، بل انتقلت إلى الأجيال اللاحقة، وساهمت في الحفاظ على شعلة النضال متقدة إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954. كما تمثل مقاومته تجسيداً لمبدأ السيادة الوطنية في أبهى صوره، حيث دافع ببسالة عن استقلالية القرار الوطني في وجه أطماع القوة الاستعمارية، ورفض كل أشكال الهيمنة أو التبعية، وهو ما جعله يحظى بتقدير كبير في الذاكرة الوطنية. إن مقاومة الحاج أحمد باي ليست مجرد فصل من

فصول التاريخ، بل هي شهادة حية على قدرة الشعب الجزائري على التحدي والصمود، وعلى أن التمسك بالكرامة والسيادة كان وسيبقى من أبرز سمات هذا الشعب، الذي لم يتوقف يوماً عن النضال في سبيل حرية وكرامته.

إعداد الباحث حسوني محمد عبد الغني